كل المواضيع مباحة!

لنفتح أعيننا على اقصى اتساع الحدقتين. ولندرس عارف الريس ثانية وثالثة وعشرين، فإن ما يرسمه الآن هو الكثافة النوعية لجميع مراحل عمره، انه يعيد صياغة زمانه الفني، بوعي سبعيني، لذلك لا بد وان ندرس النتائج المكتملة الاختمار.

ففي مقاربة بين اللغة التعبيرية الحالية. واللغة التي ابتكرها بالأمس. نجد ان عارف أسقط من لوحة الامس تلك اللغة الوصفية الادبية التي كان يحتاج اليها اسوة ببقية الفنانين التشكيليين العرب من ابناء جيله. هنا في لوحة اليوم لا نشم رائحة للنص الادبي، فعارف ليس مطالباً هو بالذات، بأن يقدم كل هذا الشرح الحياتي لمسيرة ثقافية، وسياسية، واجتماعية، وابداعية، سلكتها الامة كلها. وانتهت بنتائج اقل مما كان جيل عارف الريس يحلم بها.

تجيء لوحته الجديدة فتدخل صلب الموضوع التصويري. تتناول الرمز وتصعد به الى المستوى الاباحي للتجريد. وتتناول الصورة فتهشمها وتنتهك أنظمتها التقليدية حتى لنشعر بعض الاحيان وكأن الريس يريد ان يأخذنا نحو سوريالية غاضبة.

كأن هذا الرسام العقلاني المحكوم بأخلاقية مهنية. سوف يطل في كثير من الأحيان كمعلم يعيد على مسامعنا مبادئ التأسيس التعبيري الاولى للوحة العربية.

لا نبحث عن الموضوعات في متاهات الالفين. فكل المواضيع مباحة، كما الماضي المباح الذي صار ملكاً للناس والتاريخ. ولا نبحث طبعاً عن الوحدة فهي كامنة

في التنوع الذي جعل من عارف الريس عبر مسيرته الفنية مثالاً للثابت في المتحرك.. بل علينا ان نفتح أعيننا كما قلنا سابقاً على ثلاثية هائلة قوامها:

- متانة التأليف
- الشغف اللوني الغريب
- الصوت السري الكامن في حركة ما....

هذا المثلث المتوازي الأضلاع والزوايا، هو اللوحة الناضجة لدى الريس، بل هو الدرس الذي يعطيه مجاناً لحركة الفن التشكيلي العربي، ليقول من خلاله، بان مفردات العمل الفني التي يجب ان نمسك بتلابيبها لا تأتي دونما تجربة ناضجة، ولا تنهض في التراكم الكمي او العفوي للعناصر، بل بالتحول النوعي للمفاهيم التشكيلية. ولهذا المسار الذي يتحول الى (مصفاة) للتجربة. وعملية تشذيب للزغل.

في متاهات الالفين، جزء من مرحلة العالم الثالث، وجزء من مرحلة «دماء وحرية»، وجزء من المدى الصحراوي، وجزء من «واقع في واقع»، وجزء من المرحلة التجريدية. انها شظايا تصير مسطحاً تصويرياً بالغ الدلالة والحضور، حتى وكأنني اطالع هذه الكثافة النوعية اكاد اصرخ «بعارف الريس» بأن يستمر مشاغباً ولا يتوقف، وان يطلق لضحكته العنان لكي تمزق كل شيء، حتى العمر وكدسة الاحزان والوحدة ومتاعب الجسد....

عمران القيسي